جمهورية السودان
الخرطوم
المعهد العالى لعلوم الزكاة

ورشة شبه إقليمية حول:
دور الزكاة في تفعيل آليات التكافل الثقافي

تضمين أوجه التكافل الثقافي في مصارف الزكاة

إعداد
الأستاذ الدكتور/ يوسف إبراهيم يوسف
أستاذ الاقتصاد الإسلامي
مدير مركز صالح كامل
للاقتصاد الإسلامي بجامعة الأزهر

تضمين وجه التكافل الثقافي في مصارف الزكاة

يقوم النظام الإسلامي في جملته على أساس من التكافل بمفهومه الشامل لسائر النواحي المادية والمعنوية في حياة الإنسان. فلقد عرف التطبيق الإسلامي صوراً عديدة للتكافل يجمعها قول النبي ﷺ «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1]. والإنسان لا يحب لنفسه ماديات الحياة فحسب، وإنما يحب لها أيضاً الكرامة والحرية والعلم وكل ما تتحقق به سعادة الإنسان. وقد عرف الإسلام أنواعاً من التكافل أهمها:

١ـ التكافل الأدبي. ٢ـ التكافل الأخلاقي. ٣ـ التكافل العلمي.

٤ـ التكافل الاقتصادي. ٥ـ التكافل السياسي. ٦ـ التكافل العبادي.

٧ـ التكافل الدفاعي. ٨ـ التكافل الحضاري. ٩ـ التكافل الجنائي.

١٠ـ التكافل المعاشي.

وإن لنظرة سريعة على هذه الأنواع من التكافل ترينا أن التكافل الثقافي يمثل القاسم المشترك منها، بحيث يصب كل نوع من أنواع التكافل في تحقيق التكافل الثقافي فيتحقق في الأمة مضمون الحديث الشريف «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»(١).

إن التكافل الثقافي يشمل عدداً من أنواع التكافل التي أشرنا إلى أن الحديث الشريف «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» يتضمنها، فالتكافل الأدبي بين الناس، والتكافل الأخلاقي بين الناس، والتكافل العبادي بين الناس، والتكافل العلمي بين الناس، كلها تصب في تحقق التكافل الثقافي بين أبناء الأمة والذي يهدف إلى تقوية الذات وتحصينها وتوطيد تعايشها وتبادلها العلمي والحضاري مع محيطها العالمي.

وقد جاء الدين الإسلامي الحنيف بهذه الأنواع من التكافل وحض على تحققها بين اتباعه بعضهم مع بعض، وبينهم وبين غيرهم من إخوانهم في الإنسانية، حتى إن التكافل الثقافي بين أبناء الأمة هو الذي بنى صروح الحضارة الزاهرة للأمة الإسلامية. وقد كان عبء ذلك يقع على المجتمع المدني ممثلاً في مؤسسة الأوقاف التي حملت على كاهلها عبء بناء هذه الحضارة، بإقامة النهضة العلمية، والنهضة الصحية والنهضة الثقافية بمضمونها الواسع، من المحافظة على اللغة والمحافظة على القيم الثقافية التي حملها المجتمع الإسلامي وعاش بها مئات السنين.

---

١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أنس. انظر الكنز الثمين ص٦٥٦.

٢) متفق عليه.

بيد أن مؤسسة الوقف لم تكن المؤسسة الوحيدة التي رعت الحضارة الإسلامية وأقامت التكافل بصفة عامة والتكافل الثقافي بصفة خاصة بين أبناء الأمة. فإلى جوارها قامت مؤسسة إلزامية تساهم في هذا الدور الذي قامت مؤسسة الوقف بجزء منه. إن هذه المؤسسة هي «مؤسسة الزكاة» والتي شرعت أساساً لتحقيق الحياة الطيبة للناس على أرض الأمة الإسلامية.

بيد أن هذا الهدف العام للزكاة وهو تحقيق الحياة الطيبة للناس يحمل في أعماقه تحقيق التكافل الثقافي بين أبناء الأمة، إذ أن الحياة الطيبة وهي مضمون الزكاة لن تتحقق بغير تضمن الزكاة لما يحقق التكافل الثقافي على أرض الأمة.

وانطلاقاً من ذلك فليس من الغريب أن تعمل الزكاة في مصارفها المختلفة على تحقيق التكافل الثقافي، فهو من أهم نواتج البناء الزكوي، بمعنى أن الزكاة إذا سلك بها الطريق الصحيح، فأدت دورها المنوط بها، تحقق لا محالة ـــ وكمنتج ثانوي ـــ التكافل الثقافي، ناهيك عن أن بعض مهام الزكاة تتفق على ما يحقق التكافل الثقافي مباشرة. وعند هذه النقطة فإنه من الواجب علينا أن نكشف بالدليل الصادق عما تسهم به مصارف الزكاة في تحقيق التكافل الثقافي، مستعرضين هذه المصارف، كاشفين عن دور كل مصرف في تحقيق التكافل الثقافي.

مصارف الزكاة والتكافل الثقافي:

مصارف الزكاة جاءت حصراً في الآية رقم ٦٠ من سورة التوبة والتي تقول: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾] [التوبة: ٦٠] وفي بداية استعراض ما تتضمنه هذه المصارف من إسهام في تحقيق التكافل الثقافي، علينا أن نقرر أن هذه المصارف يجوز أن تُركّز في بعضها عندما يكون هذا البعض هو حاجة الأمة ومصلحتها الأعلى، فعندما نكون أمام مهمة رفع المستوى الثقافي للأمة، وإخراجها من ظلمات الغفلة، وسيطرة الأفكار المنحرفة، عندما يكون الأمر كذلك، فإن الجانب الأكبر من الزكوات يجب أن يوجه إلى هذا السبيل، أقصد أن أقول إننا في وقت من الأوقات يكون التركيز على إخراج الأمة من وهدة الفقر وفي وقت آخر يكون التركيز على تقويه القيم الأخلاقية والثقافية لنحمي وجود الأمة، ونبقى عليها متماسكة مُسْتعْصية على الذوبان في غيرها، وإن الذي يحفظ أية أمة من الذوبان في غيرها هو القيم الثقافية التي تحملها والأخلاق القويمة التي تؤمن بها والعادات الطيبة التي تسير عليها، وليس كل ذلك إلا الثقافة التي تتميز بها أمة عن أمة، وجماعة عن جماعة. وإذا تساءلنا: أليست تشريعات الإسلام كلها تسير في هذا الاتجاه؟ فإن الإجابة هي

بالإضافة إلى أن الزكاة تشريع من شريعات الإسلام؟ بلى. إذا فإن تشريع الزكاة إنما جاء ليحفظ هذه الأمة من الذوبان، وليعطها قدراً من الحصانة ضد الرضوخ للتبعية واستيراد الأنماط الثقافية. علينا أن نعي ذلك ونستصحبه عند حديثنا التفصيلي عن تضمين مصارف الزكاة لما يحقق التكافل الثقافي بين أبناء الأمة. ويحفظ مقوماته في نفوسهم.

إن ما يحيط بأمتنا من مشاكل، وما يكتنف طريقها من عقبات، وما يحبط معظم مساعيها في التقدم والنهوض، يمكن إرجاع أسبابه الغالبة إلى تدني المستوى الثقافي لدى الغالبية العظمى من أبناء الأمة، حتى من يوصفون منهم بالمتعلمين إذ يحملون علماً لا يحمل قيماً ولا يغرس خلقاً ولا يزكي نفساً. ومن ثم فإن التعرض لموضوع التكافل الثقافي بين أبناء الأمة، وتوضيح المعالم الثقافية للأمة، لهو أمر مطلوب لبقاء الأمة ذاتها، ناهيك عن المحافظة على هويتها.

وكي ننطلق من أرضية ثابتة في حديثنا عن تضمين مصارف الزكاة لفعاليات تحقيق التكافل الثقافي في الأمة الإسلامية، وفي علاقتها بغيرها من الأمم فإننا سنقدم باختصار شديد فكرة عن الزكاة بصفة عامة قبل تناول موضوعنا وباختصار أيضاً.

الزكاة

فرض الله تعالى «الزكاة» وأنزلها مكانة عالية بين فرائضه سبحانه، وقد جعلها ركناً من الأركان الخمسة التي بنى عليها الإسلام.

وقد نظم الإسلام هذه الفريضة تنظيماً كاملاً، في صلب أصوله، الكتاب والسنة، فجعل لها ميزانية مستقلة لا تختلط بغيرها من الأموال العامة، إذ هي حق لفريق من الناس قد حُدد بمواصفات دقيقة في الآية رقم ٦٠ من سورة التوبة ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

وقد حدد الإسلام واجبات هذه الميزانية كما حدد حقوقها، أما واجباتها إجمالاً فهي تحقيق حد الكفاية لكل فرد، وتمويل الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى والإسهام في تحقيق التكافل الثقافي، فخمس من مصارف الزكاة لتحقيق الواجب الأول، واثنان منها لتحقيق الواجب الثاني، والسهم الثامن من سهامها للإنفاق على إدارة شئون الزكاة جمعاً وإنفاقاً. وأما حقوقها إجمالاً فهي الزكاة على الأموال بأشكالها المختلفة، وبنسبها المحددة في السنة

المطهرة، إضافة إلى زكاة الفطر على المسلمين، ويمكن أن يضاف إلى هذه الحقوق ما يقدمه الأفراد أو ما تقدمه الدولة من الميزانية العامة ليضاف إلى ميزانية الزكاة.

وتمام تنظيم هذه الفريضة يتمثل فى إقامة الجهاز المشرف على جمعها وإنفاقها، ممثلاً فى سهم «العاملين عليها». وهى جزء من المال يدفعه من امتلك نصاباً خالياً من الحوائج الأصلية وحال عليه الحول، يدفعها المكلف إلى الدولة لتقوم بتحقيق الأهداف التى نيطت بالزكاة ممثلة في إغناء الفقراء والمساكين والقضاء عن المدينين وتحرير الرقاب والدعوة إلى الله تعالى. هذا هو الإطار العام النظرى لتشريع للزكاة، وقد طبقت في الصدر الأول بطريقة تناسب هذا العصر، وتؤدى إلى إغناء المستحقين لها بطريقة مباشرة، فكان المصدق يأخذ المال من الغنى ويرده مباشرة على الفقير بما يحقق له الغنى بتمليكه ثروة منتجة تدر عليه دخلاً يكفيه وربما يفيض عنه. يقول عمر بن الخطاب ﷺ «إذا اعطيتم فأغنوا» فالحد الأدنى للإعطاء هو تحقيق الغنى، وإن كان فى المال فائض فلا مانع من مضاعفة حجم الثروة المقدمة للمحتاج، يقول سيدنا عمر ﷺ «كرروا عليهم الصدقة وإن راح على أحدهم مائة من الإبل» ونحن نعلم أن خمساً من الإبل تمثل غنى يوجب على مالكها أن يدفع الزكاة، فكيف بمائة من الإبل يجوز أن تعطى للفقير إن كان للزكاة إمكانية على ذلك؟.

هذا المستوى من الغنى في الصدر الأول، كيف يتحقق في ظروفنا المعاصرة؟ أو بعبارة أخرى كيف تطبق الزكاة في ظروفنا المعاصرة؟ إن الصورة التى نراها مناسبة لتطبيق الزكاة في المجتمعات المعاصرة التى تقوم على الآلية والإنتاج الكبير، يمكن تلخيصها فى البنود الآتية:

١. أن تكون للزكاة وزارة مستقلة أو هيئة عامة كبرى تقوم على جمع وإنفاق الزكاة تحت إشراف مجلس أعلى.

٢. أن يضم المجلس لفيفاً من الخبراء فى الاقتصاد والمال والاجتماع وكلهم علماء بالإسلام.

٣. يتبع هذه الوزارة إدارات للبحوث وللتدريب وبناء المشروعات والتسويق والإعلام ... وغير ذلك من الإدارات المطلوبة.

٤. ينفق من الزكاة على بناء المشروعات المختلفة في الزراعة والصناعة والتجارة ومختلف المجالات، وتكون مملوكة لجموع المحتاجين الذين تنوب عنهم الوزارة في الإدارة.

٥. تنظر هذه الوزارة في أمور المحتاجين، فمن كان قادراً على العمل درّبته فى مجال يصلح له، وألحقته بعد التدريب بمجال من المجالات الإنتاجية، ليكفي نفسه بعمله، ومن كان عاجزاً رتبت له معاشاً شهرياً يقوم به وبمن يعول.

٦. تخصيص مبالغ لإقامة مشروعات لرعاية المستقلين في أعمالهم من الصناع والمحترفين، حيث تقضي عن عاهاتهم، وتعين من يحتاج إلى زيادة رأس ماله، أو تطوير حرفته، وتجديد وصيانة ورشته، في ظل ضوابط دقيقة، يتأكد بها انطباق أوصاف مستحقي الزكاة على هذا الشخص.

٧. تكون هناك إدارة تشرف وتمارس الدعوة إلى الله تعالى في داخل الوطن الإسلامي وخارجه، لتبلغ رسالة الله تعالى، وتصل بدعوته إلى كل الآفاق، عن طريق القنوات الفضائية، والمراكز الإسلامية، ليطّلع الناس على كلمة الله الأخيرة للبشر، ثم ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

٨. سهم من الزكاة (١٢.٥٪) على الأقل يجب تخصيصه لتحقيق التكافل الثقافي بين أبناء الأمة، بالإنفاق على زيادة المستوى الثقافي والتعليمي والأخلاقي لأبناء الأمة.

٩. تتوسع أعمال الزكاة سنوياً بما يضاف إليها من زكوات حتى تتمكن من تحقيق المستوى اللائق بمجتمع الإسلام، وتصل به إلى أعلى درجات الرقي والنهضة والنمو الثقافي والأخلاقي.

بعد هذا العرض السريع لفريضة الزكاة، ننتقل إلى الحديث عن أهم آثارها الاقتصادية والاجتماعية. وكيف تنعكس هذه الآثار في تحقيق التكافل الثقافي؟

١ـ الآثار الاقتصادية للزكاة ودورها في التكافل الثقافي

سنعرض هذه الآثار في شكل رسائل قصيرة تتمثل في النقاط التالية:

أ ـ الزكاة تزيد المنفعة الحدية للمال في المجتمع، حيث بواسطتها ينتقل جانب من المال منفعته الحدية عند صاحبه قليلة نسبياً، إلى شخص آخر منفعة المال لديه أعلى، حيث سينفق على ضروراته وحاجياته وكمالياته، وعليه فإن المال في الجملة سيكون ذا منافع أكبر بسبب الزكاة. ومن الكماليات التي ينفق عليها الحاجات الثقافية للفرد.

ب ـ الزكاة تخلق أعمالاً لمستحقيها، حيث يعملون فيها، ويقيمون بها المشروعات فيعملون ويعمل معهم غيرهم، فتقل البطالة في المجتمع وتزيد فيه العمالة، وبالتالي يرتفع الدخل القومي. ناهيك عن أنها تخلق أعمالاً للقائمين عليها العاملين في جمعها وإنفاقها وإحصاء مستحقيها.

جـ- الزكاة تجعل المجتمع مجموعة من الأغنياء وليس الفقراء، لأن الهدي الإسلامي يقوم على إغناء الناس من الزكاة، وليس توزيع لعاعة منه تنتهي قرب الحصول عليها. إن الهدي الإسلامي هنا يتمثل في قول سيدنا عمر ﷺ «إذا أعطيتم فأغنوا، كرروا عليهم

الصدقة وإن راح على أحدهم مائة من الإبل» إذاً الزكاة شرعت ليكون كل أفراد المجتمع أغنياء، وقد تحقق ذلك أيام عمر بن عبد العزيز كما يروي لنا التاريخ، حيث لم يوجد في المجتمع مستحق للزكاة، وحيث كان ينادى على المحتاجين فلا يجدون من يتقدم لأخذ الزكاة. ولا شك أن جانباً من ذلك يمثل تكافلاً ثقافياً.

ولرب سائل يسأل إذا استغنى الناس والزكاة فريضة دائمة فأين يذهب بها؟ والإجابة: إن هناك سهماً من سهامها لا ينتهي قط، وعندئذ يجب أن توجه إليه الزكاة، ألا وهو سهم في سبيل الله، الذي ينبغي أن ينفق على الدعوة إلى الله تعالى سواء في بلاد الإسلام أم في البلاد غير الإسلامية، وكذلك سهم المؤلفة قلوبهم وهما سهمان لا ينتهيان، ويمثلان التكافل الثقافي بين بنى الإنسان. والذي ينبغي أن ينتهي بواسطة الزكاة هو الفقر والمسكنة والحاجة في شتى صورها في بلاد المسلمين.

د ـ الزكاة ترفد المجتمع بشتى الخدمات التي يحتاج إليها، ذلك أن كل من يحترف حرفة ولا يملك القدرة على القيام بها، تتقدم إليه الزكاة لتعطيه رأس مال تجارته أو أدوات حرفته. وهنا يتحول إلى منتج يفيد المجتمع بتطوير الحرفة التي يحترفها ويخدم المجتمع بها.

هـ – الزكاة تنفق على تطوير البحث العلمي، حيث يعطى منها المنقطعون لهذا البحث، وتوفر لهم الزكاة المعامل التي يمارسون فيها أبحاثهم ويطورون بها مجتمعاتهم، فلقد قال الفقه الإسلامي: إن المنقطع للعلم يعطى من الزكاة، بعكس المنقطع للعبادة، لأن الأول يخدم وينفع المجتمع، بينما الثاني منفعة عبادته تعود عليه وحده. وهذه أقوى دلائل تضمن مصارف الزكاة للتكافل الثقافي بين أبناء الأمة.

و ـ الزكاة تحول دون ظهور الكساد في المجتمع حيث ترفع مستوى الإنفاق فيزيد الطلب على السلع والخدمات، فيتحقق الرواج ولا يظهر الكساد، ويزول إن ظهر لأسباب أخرى. والكساد كما نعلم يدمر المجتمع، ويقضي على الثروات، وينشر البطالة، وتقل فيه الدخول، والزكاة تحول دون ظهور كل هذه المثالب فتظهر آثار التكافل الثقافي.

٢ـ الآثار الاجتماعية للزكاة ودورها في تحقيق التكافل الثقافي

الأثر الأول لفرض الزكاة على المسلمين إنما هو تطهيرهم، تطهير الأموال مما عساه يكون قد شابها من شوائب، وتطهير الأبدان مما عساه أن يكون قد وقع منها أثناء جمع المال، وتزكية النفس والروح وتخليصهما من العبودية للمال والضن به، وتعويدها السماحة به، وتقديمه لله تعالى بنفس راضية، وروح تهفو إلى ما عند الله تعالى، وتستجيب لأوامره وتعلياته. يصحب ذلك كله دعاء النبي ﷺ وخليفته من بعده لمن طابت نفسه وزكت روحه وقدم حق الله وحق عباده بنفس راضية. ويتحقق من وراء هذا الدعاء سكينة النفس

و تشريع الصلاة والصوم بلذة العبادة وشرف العبودية لله تعالى ومن ثم الإحساس بالإسهام في تحقيق التكافل الثقافي.

هذه المشاعر وتلك الأحاسيس التي تصاحب تقديم المال هي آثار نفسية وروحية تهدف إليها فريضة الزكاة، ولها في نفس الوقت انعكاساتها على الحياة الاجتماعية، وعلى سلوك الأفراد الاجتماعي وعلاقاتهم اليومية. فما هي الآثار الاجتماعية للزكاة ؟

في الحقيقة يصعب كثيراً إحصاء الآثار الاجتماعية للزكاة، كما يصعب أيضاً إحصاء الآثار الاقتصادية لها، ذلك أن هذه الآثار يتولد بعضها من بعض، وكل أثر يقود إلى أثر آخر، وكل تغير يصيب المجتمع يولد تغيراً تالياً له في نفس الاتجاه. ولهذا فغاية جهدنا أن نصل إلى بعض الآثار الاجتماعية المباشرة لفريضة الزكاة. أما الوصول إلى كل آثارها المباشرة، ومن باب أولى آثارها غير المباشرة، فهذا ما لا سبيل إلى الوصول إليه، والوقوف عليه، في ظل تصورنا النظري، بعيداً عن التطبيق الواقعي لهذه الفريضة، التي نوقن بأنها كفيلة بالتغلب على كل المشكلات التي يئن منها المجتمع المسلم اليوم، وحسبنا أن نستعرض عدداً من الآثار الاجتماعية المباشرة.

إن الآثار الاجتماعية للزكاة يمكن النظر إليها من عدد من الزوايا:

١. زاوية انتقال المال من الأغنياء إلى المستحقين وما يترتب عليها من تأثير على النسيج الاجتماعي للمجتمع.

٢. زاوية الطريقة التي يتم بها انتقال المال من الأغنياء إلى المستحقين، وما يترتب عليها من تأثير على النسيج النفسي للمجتمع.

جـ -زاوية الفئات التي خصص لها سهم من الزكاة حيث تتناول بعض الآثار المترتبة على تخصيص سهم ينفق في الرقاب وآخر على أبناء السبيل وثالث على المؤلفة قلوبهم ورابع في سبيل الله وكلها مهام تنصرف إلى تحقيق التكافل الثقافي فضلاً عن سهمي الفقراء والمساكين.

الزاوية الأولى: زاوية نقل المال من الأغنياء إلى المحتاجين

لا تخرج الزكاة في جانبها العملي المادي، عن نقل قدر من المال من الواجدين له الفائض عن حاجتهم، إلى أولئك المحتاجين إليه الذين لم يتمكنوا من تحصيل ما يكفيهم بجهودهم، فإذا تم نقل هذا المال إليهم تمكنوا من سد حاجاتهم، وإقامة حياتهم، والتفرغ لأداء دورهم في بناء المجتمع، والإسهام في تقدمه على قدم المساواة مع الأولين.

هذه العملية تقيم التوازن بين أفراد المجتمع ويشعر الجميع أنهم أعضاء فيه، لهم من الحقوق وعليهم من الواجبات مثل غيرهم، ومن ثم تنتفي في هذا المجتمع عدد من الظواهر السلبية التى إن وجدت مزقت النسيج الاجتماعي، وقضت على تماسكه، وجعلته سهل الاختراق من كل من يتربص به. إن أول ما تحققه هذه العملية هو نفي الطبقية البغيضة التي يشعر بها الناس عندما تتركز الثروة عند البعض، ويفتقدها البعض الآخر، ذلك أن الطبقة ليست إلا مجموعة من الأفراد تتميز عن غيرها في مدى ما تتمتع به من نعم مرغوبة فى المجتمع بسبب وفرة أو نقص ما لديها من أموال.

فإذا استأثر الأغنياء بالأموال، ومنعوها عن الفقراء ظهرت الطبقية البغيضة، التي تولد الحقد والحسد والكراهية والبغضاء من غير الواجدين على أولئك المالكين، وتولد الكراهية والخوف لدى المالكين، الذين لا يأمنون في ظل هذه الأحاسيس وتلك المشاعر لا على أموالهم ولا على أنفسهم، ولا على مستقبل مجتمعهم، ويصبح المجتمع فعلاً في مهب الريح، تنتابه القلاقل، وتنوشه الاضطرابات، فلا يتفرغ لبناء، ولا يقوى على تحقيق تقدم.

إذاً نستطيع القول إن من آثار الزكاة الاجتماعية:

١. تماسك المجتمع وصلابة بنائه، وقدرته على الصمود أمام التحديات الداخلية والخارجية.

٢. نزع عوامل الحقد والحسد والخوف والكراهية من نفوس الفقراء وتفرغهم للعمل والإنتاج وإثراء المجتمع بالصالح من القيم وهذا مظهر ساطع الدلالة على تحقق التكافل الثقافي.

٣. نزع مشاعر الخوف لدى الأغنياء من المحتاجين الفقراء، ومن ثم يأمن الأغنياء على أموالهم وأنفسهم، وإتاحة الفرصة أمامهم لتوسعة مشروعاتهم وتنمية أموالهم، ومن ثم بناء التنمية وتحقيق التقدم ورفع مستوى معيشة الناس.

٤. شعور الفقراء بمسئولية الأغنياء والمجتمع عنهم، وهذا جوهر التكافل الثقافي، ومن ثم يخلصون في أداء أعمالهم، ويتحملون التبعات التى تلقى عليهم بروح عالية ونفوس مطمئنة.

٥. استقرار الأوضاع الاجتماعية، وشعور الجميع بالرضا والسعادة، ودعاء المحكومين للحكام، وثناء الحكام على المحكومين، بدلاً من أن يلعن الشعب حكامه، ويتبرم الحكام بالمحكومين. قال رسول الله ﷺ «خير حكامكم الذين تدعون لهم ويدعون لكم، وشر حكامكم الذين تلعنونهم ويلعنونكم». والتكافل الثقافي هنا واضح أشد الوضوح.

الأسلوب الذي يتم به نقل المال من الأغنياء إلى المستحقين

كان يمكن أن تتم عملية نقل المال من الأغنياء إلى المحتاجين مباشرة، بمعنى أن يتقدم الغني بزكاته فيعطيها لفقير أو عدد من الفقراء أو غيرهم من أصحاب الحقوق. وفي هذه الحالة يشعر الفقير بعطف الغني عليه، ويشعر أنه اليد السفلى، والغني يده العليا، وأن الغني يقوم بالإحسان إليه، ويعطيه فضل ماله.

هذا الطريق في نقل المال من الأغنياء إلى الفقراء، لم يقره الإسلام ولم ينصح به، وإنما أمر بغيره وجعل الزكاة علاقة بين الغني وربه من ناحية، فلا يخفي منها شيئاً، كما جعلها علاقة بين الغني والدولة، من ناحية ثانية تجمعها معاً، وتحصلها كما حدد الله تعالى وبيّن في كتابه وسنة رسوله. ثم جعلها من ناحية ثالثة علاقة بين الدولة وأصحاب الحقوق، تنفقها عليهم طبقاً للمصارف المبينة في آية الصدقات الآية رقم ٦٠ من سورة التوبة ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾.

هذه العلاقة الثلاثية في جمع وإنفاق الزكاة تنتج آثاراً اجتماعية طيبة، وتحول دون الآثار السلبية التي صدرنا بها هذه الفقرة. كما تكشف عن تحقق التكافل الثقافي بين أبناء الأمة، حيث ترتفع المستويات الثقافية والأخلاقية والمعيشية كمظهر لتحقق التكافل الثقافي.

وأهم الآثار الاجتماعية الطيبة التي يتجبها توسط الدولة بين الأغنياء والمستحقين للزكاة (إذ تأخذ من الأولين وتقدم للآخرين) هي:

١. توسط الدولة في هذه العملية، يحول دون أن تصبح العملية إحساناً من الواجد على غيره، فلا تغرس في نفس الآخذ شعوراً بتفضل الغني، ولا تجعل له في عنقه منة.

٢. عندما تستقطع الدولة الزكاة من مال الغني، فإن العلاقة لن تكون بين الدولة والفرد فحسب، ولكنها قبل ذلك علاقة بينهما وبين الله تعالى الذي أمر الدولة بأخذ حق المستحقين من مال الأغنياء ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة: ١٠٣].

ومن ثم فإن الغني لا يشعر بظلم الدولة - كما يحدث أحياناً في الضريبة الحديثة - إذ أن الله تعالى هو الذي أمرها بأخذ الزكاة، وأمره هو بتقديمها إليها، بل جعلها قرضاً منه لله تعالى، له عليه أكبر الثواب، وله على ماله خير تأثير وبركة ونماء.

٣. عندما تقدم الدولة هذه الموارد إلى من يستفيد بها من أصحاب الحقوق، فإنها لا تمن عليهم، ولا تعطيهم من أموالها، فما ذلك إلا حق المحتاج قرره الله تعالى له في المال الذي

استحلف عليه الجميع، ومن ثم فلا منة لأحد عليه، فلا الدولة لها منة، ولا الأغنياء لهم المنة، بل المنة لله تعالى على الجميع. يقول سيدنا عمر ﷺ عندما حدث عن زيادة العطاء عن حاجة الناس يقول: «هو حقهم وأنا بوصوله إليهم أسعد به منهم، ولو كان من مال الخطاب ما أعطيتهم منه شيئاً» فليس من حق ولى الأمر أن يمن على الشعب بأنه قدم إليه كذا أو كذا، وبنى له كذا وكذا، فليس ما قدم وما بنى من ماله أو مال أبيه، وإنما هو مال المجتمع، يجب أن ينفق على مصالحه، دون منة لأحد على الناس. وهذا أرقي درجات التكافل الثقافي.

٤. بقيام الدولة بهذا الدور – دور الوسيط بين الأغنياء ومستحقي الزكاة – تنزع الشعور بالتفضل من نفسية المالك، وتنزع الشعور بالإحسان من نفسية المستفيد، وبذلك تكون طريقة الإسلام في تقديم المال إلى المحتاجين لم تعط الفرصة لظهور أى صراع ولو نفسي فى المجتمع، وتبقى العلاقة بين أفراد المجتمع فى إطارها الصحيح، إطار الأخوة الإسلامية، وإطار المساواة التامة بين الجميع، ويعيش الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لأحد على أحد.

٣ـ زاوية الفئات التى خصص لها سهم خاص:

تحدثنا عن الآثار الاجتماعية المترتبة على مجرد نقل المال من الأغنياء إلى المحتاجين، ثم تحدثنا عن الآثار الاجتماعية المترتبة على الطريقة التى يتم بها هذا الانتقال، وبقي أن نتحدث عن الأثر المترتب على تخصيص فئة معينة بسهم من سهام الزكاة.

فكيف تعاضد مصارف الزكاة بناء التكافل الثقافي؟ وكيف نظهر اشتمال هذه المصارف على ما يبني التكافل الثقافي بين أفراد الأمة؟ سنناقش مضمون كل مصرف من المصارف الثمانية، ولنرى أيها أقرب إلى تحقيق التكافل الثقافي في المجتمع.

أولاً: الفقراء والمساكين:

١ – ما هو البديل أمام الفقير والمسكين الذى لا يجد ما يسد به حاجاته، ويطعم به أولاده؟

البديل لذلك أن يظهر في صورة لا يرضاها الإسلام، يتكفف الناس، ويسألهم فيعطونه أو يمنعونه، وعندها يفقد المرء مروءته وتجئ المسألة نكتة في وجهه يوم القيامة.

إذاً تخصيص سهم من الزكاة لإغناء الفقير، وآخر لإطعام المسكين، يخلي المجتمع من ظاهرة التسول، تلك الظاهرة التى يدل وجودها على تقصير المجتمع فى حق هذه الفئات، وتعد وصمة في جبين المجتمعات.

إن تطبيق الزكاة بمضمونها الإنتاجي، يعني الناس جميعاً، بجهودهم أساساً، وبتقرير معاشات للعاجز عن الكسب، ولليتيم الفقير وغيرهم من أصناف المحتاجين، يخلي المجتمع من بقعة سوداء في ثوبه الذى ينبغى أن يكون ناصع البياض. إن التسول هو هذه البقعة، وهو إذلال وإهانة لا ينبغى أن يترك المواطن يمارسها. إن جيش المتسولين في المجتمع يعكس خروج هذا المجتمع على شريعة الله تعالى التي قررت الزكاة ليغتني بها كل فقير، وتسد بها حاجة كل محتاج.

٢- وعندما لا يجد الفقير والمسكين حاجتهما، ولا يتوجهان إلى التسول فإن البديل لذلك هو ارتكاب الجرائم والخروج على المجتمع، وتهديد أمنه، وترويع أفراده. إن الكثير من الجرائم التى ترتكب فى المجتمع، مبعثها الفقر والاحتياج، سواء قام بها الكبار أو الصغار، الرجال أو النساء. إن الطفولة المشردة. وما يعرف بظاهرة أطفال الشوارع، مردها الحقيقي إلى الفقر والاحتياج الذى يسبب التفكك الأسري فيقود إلى هذه الظاهرة. ومن هنا تبين أن رعاية الزكاة للفقير والمسكين تقي المجتمع شرور الجريمة بشتى أشكالها، وتنتشل الطفولة من براثن التشرد، وتحمي المجتمع من أخطاره المتعددة.

٣- عندما تجعل الشريعة من تمام كفاية المحتاج الزواج، وتطبق الزكاة في العصر الأول فتبحث الدولة عن كل بكر له رغبة فى الزواج فتزوجه وتصدق عنه. ألا يمثل ذلك نفياً لظاهرة اجتماعية خطيرة هى العنوسة التى يترتب عليها الكثير من الشرور وتقضي على حق الفرد في حياة طبيعية في ظل أسرة مستقرة ؟ ألا يحول تمكين الشباب من الجنسين من تكوين أسرة مستقرة، دون الكثير من الأخطار الاجتماعية التى نشاهدها اليوم في المجتمع، لأنه لم يستفد من تشريع الزكاة بالصورة التى أرادها مشرعها ؟

٤- عندما تجعل الشريعة من تمام الكفاية توفير أدوات الإنتاج للصانع وأدوات الحرفة للمحترف، ورأس المال للتاجر.. إلخ أصناف العاملين، ألا يعني ذلك التخلص من البطالة، والتى تكمن في ثناياها معظم الأخطار التى تتربص بالمجتمع؟ إن المشاعر النفسية المدمرة التى تستولى على العاطل، إمَّا أن تحيله إلى خطر داهم يأتى على الأخضر واليابس، ويهلك الحرث والنسل، وإما أن تحيله إلى كم مهمل تستذله الحاجة، وتقضي على إنسانيته، فلا يشارك في بناء، ولا يسهم في تقدم وارتقاء، وفي الحالتين فقد خسر المجتمع لبنة من لبناته. إن الزكاة عندما تمهد أمام العاطل سبل العمل، تقضى على كل هذه المفاسد، وتحول دون كل الشرور المترتبة على البطالة اجتماعياً أولاً واقتصادياً ثانياً

٥- وعندما يكون من تمام كفاية المرء في الشريعة توفير كتب العلم وأدوات البحث العلمي لمن هو من أهله، بتعبير الفقهاء. ألا ينعكس ذلك على تقدم البحث العلمي في

المجتمع، وإثراء الحياة العلمية، والوصول إلى الاكتشافات العلمية المفيدة، وقيادة المجتمع قيادة رشيدة، تعتمد على الأسلوب العلمي، بدلاً من القيادة القائمة على الفهلوة وخداع الناس وإلهائهم عن واقعهم الأليم، وظروفهم السيئة.

إن من آثار الزكاة الاجتماعية، سيادة المنطق العلمي في المجتمع، ونشر العلم بين أرجائه، حتى لا يبقى به جاهل، ولا يضم بين أفراده أمياً. إن الأمية في المجتمع وصمة في جبين الأمة التي كانت أولى الأوامر الموجهة إليها في كتاب ربها، طلب القراءة، ومن قواعد تشريعها أنه ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾ [الزمر:٩].

إن من الآثار الاجتماعية لتشريع الزكاة القضاء على الأمية، ونشر العلم والمعرفة وسيادة المنهج العلمي في إدارة الشئون، ومواجهة القضايا الاجتماعية، والبحث لها عن حلول صحيحة. وهذا هو جوهر التكافل الثقافي يحققه سهم الفقراء وسهم المساكين.

ثانياً: الغارمون:

تخصيص سهم للغارمين الذين استغرقت الديون ذمتهم ولا يجدون لها وفاءً، تخصيص هذا السهم له من الآثار الاجتماعية الكثير، فنحن نعلم أن الدَّين هم بالليل ومذلة بالنهار، وإذا عاش المرء في ظل الهم والمذلة لم تطب له معيشة، ولم تهنأ له حياة، فإذا جاءت الزكاة لتقضي عنه دَيْنه، فإنها بذلك ترفع عنه ذله، وتزيل عنه همه، فتجعل لحياته معنى، ولمشاركته في بناء مجتمعه قيمة.

كما أن سهم الغارمين إذ يعطى منه الذين استدانوا في مصلحة المجتمع إطفاءً للنزاعات وتحقيقاً للمصالحات حتى لا تتحول النزاعات إلى نيران مستعرة تأتي على الأخضر واليابس، عندما يعان أصحاب النفوس الكبيرة الذين يتقدمون للإصلاح بين الناس يستطيع المجتمع أن يتجنب المخاطر التي تقض مضجعه، ويعيش أفراده في أمن واطمئنان، ويتفرغون لإثراء الحياة بالعمل النافع، وعلاقات الود والمحبة والإخوة الصادقة. مستظلين بظلال التكافل الثقافي الواضحة في هذا السهم من سهام الزكاة.

ثالثاً: في الرقاب:

إن سهم ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ مخصص لتحقيق التكافل الثقافي مباشرة، فقد قصد منه تصفية نظام الرق الذي جاء الإسلام ووجده فاشياً ونظاماً تقوم عليه المجتمعات المختلفة. وقد قام بتجفيف منابعه تقريباً، وتعامل مع القائم منه بتخصيص هذا السهم لينفق في تحرير الرقاب، ونقل فريق من الناس من حالة التبعية والخضوع للغير، إلى حالة من الاستقلال وحرية

[illegible] يضيف إلى المجتمع أعضاء من نوعية جديدة ذات سلوك مختلف عن ذي قبل، ويصبح المجتمع مجتمعاً للأحرار المتساويين في الحقوق والواجبات.

وإذا كانت الحضارة المعاصرة قد أحالت الرق من حالة فردية إلى حالة جماعية، تسترق فيها شعوب بأكملها، فإن هذا السهم ينبغي أن يوجه اليوم إلى مكافحة الظلم الواقع على الشعوب المستضعفة من المستكبرين في الأرض، دولاً وحكومات. إن التجارة في البشر قد عادت من جديد اليوم وينبغي أن يتصدى المجتمع الإسلامي لمحاربة هذه الظاهرة، وتمويل ذلك من سهم ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ من أسهم الزكاة.

رابعاً: ابن السبيل:

سهم من سهام الزكاة، يدل على سمو هذه الشريعة، وأنها من لدن حكيم حميد، فلم تغب شاردة أو واردة عن هذا التشريع. والسبيل هو الطريق، فابن السبيل هو من لا يجد له مأوى ولا ملاذاً غير الطريق الذي يسير عليه أو ألقي فيه. وأبناء السبيل كثيرون، أحسنهم حالاً من كان غنياً ببلده، ولكنه يمر بظروف طارئة في سفره، عندما لا يملك ما يعود به إلى بلده، وحل مشكلة هذا أمر يسير بتوفير ما يمكنه من العودة إلى بلده موفور الكرامة. بيد أن من أبناء الطريق من هم في ظروف أقسى من ذلك بكثير، إن الطفل المشرد الذي فقد الأسرة والعائل ولم يجد إلا الطريق يأوي إليه، والرضيع الذي ألقي على قارعة الطريق، وتخلصت منه أمه، ومن ضل ولم يهتد إلى أهله، وغيرهم كثير من أبناء السبيل. كل هؤلاء ما لم نهتم بهم ونوفر لهم المأوى المناسب والحياة الكريمة، سيمثلون قنابل موقوته، تنفجر في المجتمع الآن أو غدًا. وعندما يقرر الإسلام لهم سهماً من الزكاة. تقام منه الملاجئ ودور التربية والتعليم لهم، تكون الزكاة قد حققت التكافل الثقافي وحمت المجتمع من أخطار جسيمة، وشرور كثيرة، وقدمت له أفراداً يعترفون بفضله عليهم، فيتفانون في خدمته والدفاع عنه. فما أكثر الآثار الاجتماعية الطيبة لسهم ابن السبيل.

خامساً: المؤلفة قلوبهم وفي سبيل الله:

هذان السهمان يمثلان نصيب الدعوة الإسلامية في فريضة الزكاة، ذلك أن الإسلام هو كلمة الله الأخيرة إلى البشرية والحساب يوم القيامة لكل البشرية سيكون على موقفها من إجابة هذه الكلمة، ورحمة من الله بعباده، أراد أن يطلعهم على هذه الكلمة، وكلف أمة الاستجابة بأن تطلع أمة الدعوة على هذه الكلمة وجعل من نسيج هذا الدين، توفير التمويل لعملية التبليغ هذه.

ولا تقف الآثار الاجتماعية لهذين السهمين عند حدود المجتمع الإسلامي، بل تتعداه إلى غيره من المجتمعات، ونحن إذ ننفذ تعليمات الله تعالى بالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة

والموعظة الحسنة إنما نقيم جسور الصداقة بين المجتمع الإسلامي وبقية المجتمعات، وتنعكس هذه الجسور على حياتنا الاجتماعية أمناً وسلاماً وأخوة إنسانية، كما تنعكس على المجتمعات الأخرى رحمة ومعرفة بطريق النجاة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وصور الإنفاق في سبيل الله تعالى وفي تأليف القلوب، تتطور بتطور المجتمعات، وتقدم الإمكانات، وتختلف باختلاف عادات الشعوب ونفسية المجتمعات، وعلى القائم بشئون الدعوة إلى الله تعالى أن يراعي كل ذلك، فهذا هو المقصود بالحكمة في قوله تعالى:

[ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾] [النحل: ١٢٥].

ومن كل ما سبق نستطيع أن نقرر أن الزكاة تمثل تمويلاً وافراً لتحقيق التكافل الثقافي بين الناس، فكل مهامها تتجه إلى رفع المستوى الثقافي والمستوى الأخلاقي والمستوى المعرفي، بل ونستطيع أن نخصص نسبة كبيرة من الزكاة لتمويل التكافل الثقافي، ناهيك عن أن كل إنفاق للزكاة وجدنا فيه إسهاماً في تحقيق التكافل الثقافي.

هذا وبالله التوفيق

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين